

اللغة وطن وهوية

إعداد الأستاذ الدكتور

زهران محمد جبر

أستاذ الأدب والنقد المتفرغ في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالقاهرة - جامعة الأزهر





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللغة أيا كانت اللغة: وسيلة التخاطب، وترجمان الفكر، وتبيان العقول، واللغة العربية وطن أمة، وهوية دين، إليها ينتسب، وبها يفتخر، ولها الخلود والبقاء، وهى الميثاق الجامع، والقاعدة الفكرية، ووسيلة الأمة للترقى، وتوصيل العقيدة، وصياغة العقل، وتنظيم نمط تفكيرها، وتشكيل نسيجها، وحماية ذاكرتها ومناطق الوجود تحيى إذا اعتنى بها من الموات أمما، وتحيل أخرى بإهمالها ربما عرفها ابن تيمية: "أنها أداة تواصل وتعبير عما يتصوره الإنسان ويشعر به، وهى وعاء للمضامين المنقولة، سواء كان مصدرها الوحي، أم الحس، أم العقل، وهى أداة لتمحيص المعرفة الصحيحة، وضبط قوانين التخاطب السليم"، (موقع أنا البحر على الشبكة العنكبوتية)، لغة ضربت بجذورها في عمق التاريخ، وتكيفت مع مختلف الأزمنة والأمكنة فحافظت على مكانتها، بل وزادها ذلك انتشارا.

فهي دالة الضمير، وأداة الاتصال، ووسيلة التفاهم والتخاطب، وحاضنة وحسن الحضارة، وروح التاريخ، وناقل الفكر والثقافة، جعل الله لها ولأهميتها وظيفة تبليغ الرسالات وأداء الشرائع، قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" (جزء من الآية ٤ سورة إبراهيم)، ولأمر لا يعلمه إلا الله تعالى أرسل الله خاتم أنبيائه ورسوله محمدا ﷺ. ورسالته ﷺ عالمية، وجعل العربية لها لسانا ومعجزته قرآنا وأقواله وأفعاله سنة، واجتمع فيهما شريعة

الأمة الإسلامية عربا وأعاجم قيما وتعاليمها، إرشادا وهديا، وتحل الأولى بين اللغات

الأخر حيثما يطمأ المسلمون الأوائل أرضاً، وأضحى الانتماء إليها شرفاً وعزاً وفخراً، وتسابق غير العرب في منجزاتهم الفكرية إلى العربية إبداعاً ونتاجاً ناهيك عن العرب في كل عصورهم فتركوا تراثاً لا ينضب معينه، ولا ينقطع عطاؤه، لا نزال عيالاً على ما وسعت العربية من فنون وعلوم، وتواليف جهود عقلية جبارة أضاءت الطريق للبشرية لا ينكرها إلا جاحد ولا يغفل عنها إلا مرمود.

والحقيقة بادئ ذي بدء ليس بعد كلام الله من كلام ولا بعد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث، فيكفى اللغة العربية مكانة أن الله تعالى أنزل بها كتابه الكريم، وبلغ نبيه - ﷺ - بها الرسالة، ونزل به الروح الأمين على قلب نبيه، أي شرف بعد هذا، إنها لغة تستمد قداستها من قداسة القرآن الكريم فوجب الاعتناء والاهتمام بها، وغير العرب هم من أدركوا منزلتها فهرعوا إلى تعلمها والتباهي بإتقانها. "وقد بدأ التطبيق العملي لهذا في حياة المسلمين من غير العرب فلم يعتبر أحدهم أن بإمكانه الاستغناء عن العربية والاقتصار على ما يفهم من الإسلام بلغته الإقليمية بل كانت (العربية) غاية مناه، ووسيلة فهمه لإسلامه وعقيدته، فظهر منهم مؤلفون وعلماء ومفسرون ونحويون ومؤرخون، أدركوا من مدلولات الخطاب ما أدركه العرب أنفسهم بل وصلوا إلى مرتبة الإمامة في اللغة والفقه والتفسير والحديث وما إلى ذلك من العلوم، التي لا تتوفر إلا لمن أتقن العربية وعلومها".

"إن في اختيار اللسان ليكون أداة التوصيل، ووسيلة الإبانة، ووعاء التفكير للرسالة الخاتمة الخالدة - التي تنتظم جميع شؤون الحياة، وتستجيب لمشكلاتها - قضية ذات أبعاد

لغوية وثقافية وعلمية وحضارية، حيث لم ينكر اليوم علاقة التعبير بالتفكير، والإبداع الأدبي والعلمي، والمحاکمات العقلية.

لذلك فمجرد اختيار (العربية) لتكون لغة الله - ﷺ - في مخاطبة البشر في النبوة الخاتمة،

التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية كافة، والتي تحددت مهمة الرسول الكريم -

ﷺ - فيها بالبلاغ المبين، يعنى امتلاكها هذه الأبعاد جميعا، قال تعالى: (فإنما عليك البلاغ

المبين)، (آل عمران ٢٠)، (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) (النور ٥٤).

فاختيار (العربية) لتكون لغة التنزيل للخطاب السماوي، أو لتكون لغة خطاب الله الأخير

إلى البشر، له دلالات كثيرة، فإذا سلمنا أن من مقتضى (الخاتمية) أو من لوازمها

الخلود.....أدر كنا خلود اللغة العربية، وسعتها ومرونتها وغنى مفرداتها، وكثرة

مترادفاتها، التي تمتلك التعبير عن كل حالة شعورية، ولا يضيق لفظها عن استيعاب أي معنى،

ولا يضيق سلمها الصوتي عن النطق بأي حرف، مهما كان معقدا في اللغات الأخرى، فضلا

عن قدرتها على تقديم الأوعية التعبيرية والاستجابة لكل الظروف والأحوال التي يكون عليها

الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري في سائر العلوم": (ص ١٣، ١٤: عبقرية اللغة العربية،

محمد عبد الشافي القوصي).

وقد أشار القدماء والمحدثون والعلماء في مختلف العصور إلى فضل تعلمها والحث

عليه فإن " ما لا يعرف الضرورة إلا به فهو ضرورة".

وظل العهد بالعربية على هذا المنوال حتى حللنا ما بعد عصر التخلف لتقوم الدنيا ولم

تقعد بعد، لاجحة وهرجا ومرجا وحقدا وضغائن وكرهية للعربية ومنتمياتها، واستبسالا في

الهجوم عليها للنيل منها والحط من شأنها، وإدارة حرب شعواء عليها، وليس لهم منها إلا:

كناطح صخرة يوما ليوهنها فما وهت وأوهى قرنه الوعل

اللغة العربية حصن الأمة، وصمام أمنها، وقائدها ورائدها للتمييز: قال تعالى " وكذلك

أنزلناه حكما عربيا، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا

واق" (آية ٣٧ الرعد)، لذلك نذر الأعداء جهودهم للنيل من القرآن الكريم ولغته، فسلطوا من

جند إبليس ما لا طاقة إلا لذوى العزم والبأس الشديد لصددهم ودفعمهم عن حياض الإسلام

ومقدساته.

إن حماية اللغة العربية واجب مقدس، لأن في ذلك حماية للعالم كله، أو كما قال العقاد-

ﷺ - "من واجب القارئ العربي إلى جانب غيرته على لغته، أن يذكر أنه لا يطالب بحماية

لسانه فحسب، ولكنه يطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه؛ بما يصيب هذه الأداة

العالمية من أدوات المنطق الإنساني، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال، وإن بيت

القصيد هنا أعظم من القصيد كله، لأن السهم في هذه الرمية يسدد إلى القلب ولا يقف عند الفم

واللسان، وما ينطق به في كلام منظوم أو مثور".

إن العداة للإسلام عموما والعربية بوجه خاص، إنما سببه في اعتقادي فهم أولئك دلالات

الآيات وتعمق مبانيها ومعانيها وفهم إشاراتهما وإدراكهم عقد الخيرية لأمة محمد ﷺ: "كنتم

خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (الآية ١١٠

آل عمران)، فكان العمل الدؤوب على التفريق بين الأمة وقرآنها مهما كلفهم الأمر وتكبدوا في ذلك بذل الجهد والنفس وفتشوا عن أضعف حلقة في بناء الأمة، فوقعوا على الناشئة فجدوا ما يملكون غلا ليصرفوهم بشتى الشواغل والمغريات عن دينهم ولغتهم وسددوا سهام الأغراء بما لا يفيدهم حياة ولا نشورا، وجرهم إلى توافه الأمور والشئون، وحشو عقولهم بالغشاء والترهات؛ حتى لا يلتفتون إلى ما يحملهم القرآن إليه من سمو والعزة والشرف والكرامة والعمفة وفضائل الأخلاق، فكيف إذا رسخ في قلوبهم، ووعت عقولهم وتربت ضمائرهم، ووقعت عيونهم على قوله تعالى: "ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين" (الآية ١٢ الأحقاف)، أو صدحت ألسنتهم بـ "كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون" (الآية ٣ فصلت).

إن الأمر لن يكون على ذوي الإحن سهلا ولا المهمة يسيرة إذا لم تنفذ أنفاسهم لهثا وراء فك ارتباط الشباب بالدستور السماوي، وقطع صلتهم بمنبع هويتهم وتغريبهم عن لغتهم، وشق عصا الطاعة عليها، فإذا أفلحوا - ولن يفلحوا - فكل أمر بعد ذلك مقدور عليه، وتيهان الأجيال المسلمة عن الجادة غير مشكوك فيه.

وبما أن القرآن الكريم في آياته البينات يلح على عربيته ووسمه أنه غير ذي عوج، وفيه تأكيد بعد التأكيد والإشارة بعد الإشارة، "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (الآية ٢ يوسف)، "وكذلك أنزلناه حكما عربيا" (٣٧ الرعد)، "وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد" (١٣ طه)، "وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا" (الآية ٧ الشورى)، "إنا جعلناه

قرأنا عربيا لعلكم تعقلون" (الآية ٣ الزخرف)، وهكذا نجد من الآيات ما يدل على أهمية اللسان الذى كان به الرسالة، وقوامها العربية، وتميز فضلها وخلودها وحفظها ما بقيت السماوات والأرض، وذلك غير منكور .

أن من مزايا لغة الضاد الفصاحة، وسعة المفردات، والأصوات، ودلالاتها على المعاني، وعلم العروض، والتخفيف، والإيجاز: حروفا وكلمات وتراكيب وجملا، ثم الإعراب ودلالته على المعنى، والعربية فخيمة، ولغة شاعرة، ومعبرة، أجل إنها لغة الضاد التي تميزت بالجمال والوضوح والدقة في التعبير عن المعاني، ومما يؤكد هذه الحقيقة، أنه عندما ينقل القرآن الكريم إلى لغة أخرى، فإن المعاني لا تستوفى كما هي مستوفاة باللغة العربية. (يراجع: عبقرية اللغة العربية ص ٧٨).

وبما أن القرآن مهيمن على غيره من الكتب السماوية، فكذلك العربية على غيرها من اللغات، ومن هنا كان مكن الحقد وأسباب الكراهية للأمة ولغتها، ليظل جدال المبطلين، وفحیح الأشیاع والمنقادین، وتجروء الحاقدين على وطن الإسلام ولسانه، وتلمظ المغرضین، يأرز عبر العصور للنيل منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولكن جزى الله خيرا من يهتم بتأسيس كتابتیب تحفیظ القرآن الكرىم، وبعهد الأطفال والناشئة بالرعاية والقیام بتعلیمهم وإرشادهم وتقویم ألسنتهم منذ یفاعة، وتوثیق صلتهم بلغتهم، والتأکید على هویتهم، والحفاظ علیهم من الذوبان فی اللاشئ والضیاع فی صحارى الضباع، وفلوات المجهول وبرائن الجهل والجهول، والمروق من النور إلى ظلمات تعددت طرائقها، وتنوعت وسائلها، وأربدت

غيومها، وحاصر ضلالها العقول والقلوب والصدور، وحيرت الحلوم؛ حتى ضاقت بالعلماء السبل، وأحاطت بهم الحيل، وزاغت منهم الأبصار، فهاموا على وجوههم، وتقوقعوا سجناء مصائرهم:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولكن كوة النور، وشعاع الأمل لا يزالان يرفدان العربية مستقبلا زاهرا، وعصرا واعدة، فقد تكفل الله ﷻ بحفظها ورعايتها، قال الله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (الآية ٩ الحجر)، وحفظ القرآن حفاظ على العربية، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم "أحب العربية لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي" (أخرجه الطبراني والبيهقي وآخرون عن ابن عباس)، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه: "أول من فتح لسانه بالعربية المبينة إسماعيل" (رواه البخاري، وحسن سنده ابن حجر وصححه الألباني).

ولأن العربية وسيلة فهم مصدري الشريعة: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآلة إدراك مغزاهما كان العمل الدؤوب على إفساد الذائقة العربية، وتغريب اللسان العربي في أمته، فلا يعرف عبادات ولا عادات، ويستعجم الأدب والمشاعر "وإذا كان الأدب العربي صورة للحياة، فاللغة العربية هي منبع الحياة لأنها لغة الكتاب الذي يهدى النفوس التائهة، ويشفى القلوب المريضة"، ويستغلق فهم الأصول والفروع، وإدراك دلالات القصص والأخبار من دونها.

وعلى الجملة نؤكد على أن اللغة العربية قوام بقاء الأمة، وأحد أهم مقوماتها، بل هو المقوم الأساس، ومرجع عزتها وموئل شرفها، وتمايز هويتها التي تذوب وتضمحل بدونها، ولها تأثيرها على الأمم ولغاتها، من تركية وفارسية وأردية وغيرها، كما أنها لغة ابتكار وتجديد تكيف وتبدع في مختلف العلوم وعملت على ترسيخ الانتماء بنقل تاريخ الأمة وثقافتها إلى الأجيال تلو الأجيال، ثرية البنى، عميقة الدلالة، تميزت بالفصاحة والبيان والترادف، والأصوات واللهجات، ودلالاتها على المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وثناء معجمها بالاشتقاق والنحت، والتركيب والتعريب، وإن كان أبنائها يعزفون عنها تعلقا بمتاع الدنيا وجريا وراء المظاهر، فإن لها في جامعات العالم اعتبارها، ولها أقسام تعنى بها، وما صنيع المستشرقين بمنكور، يقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون: "اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفردت في طريق التعبير العلمي والفني"، ويقول رينان وهو مستشرق فرنسي أيضا: "من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل. تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، ونظام مبانيها". ويستطرد قائلا: "ولم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعرف شبيها بهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقية حافظة لكيانها من كل شائبة". فاته في ذلك أثر القرآن الكريم عليها، وأنه، نزل بلغة قريش المنتخبة.

وفي اتخاذ الثامن عشر من ديسمبر عيداً لها واحتفاءً بها اعترافاً بأهميتها. وإن كان هذا شأنها مع الأمم المتحدة فيا ويح معاناتها من أبنائها، ومن عقوقهم لها، وجحودهم فضلها، اتباعاً لهوى الأعداء وتساويل النفس الأمارة بالسوء فوكلهم الله إلى أنفسهم ما لهم من الله من ولي ولا واق.

والتاريخ شاهد على أن شعوب الأرض ممن بلغهم القرآن وعت مراد الله تعالى من الآيات التي تبدت ماثلة أمام عيونهم، بأن القرآن الكريم عندما نزل بالعربية زكى العرب وجعلهم أعزة، فحشد الباطل أعوانه والمرجفون أزالهم ليطفئوا نور الله بأفواههم، وطمس الحقائق بترهاتهم، (والله متم نوره ولو كره الكافرون)، وأنى ذلك لأولئك. " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعملون " (الآية ٣ فصلت).

ويبقى الأمل معقوداً على أبناء العربية البررة، لتأكيد الانتماء إليها وللذود عنها ورد جحافل الغوغائين المارقين عن فسطاطها، " والحفاظ عليها لا من العداء الخارجي إذ ليس هو الأخطر ولكن الأشد خطراً وفتكاً بها هو العداء الداخلي الذي يهدد اللغة العربية بالانفلات الذاتي على يد أبنائها " - وهي محفوظة بإذن الله - من كيد الكائدين وحقد الحاقدين وحسد الحاسدين وشر الأشرار وكيد الفجار.

وإلا شاركنا شاعر النيل حسرته على اللغة العربية حين قال:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَاتِي
رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي
وَلَدْتُ وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعَرَائِسِي
وَسِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً
وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي
رِجَالًا وَأَكْفَاءً وَأَدْتُ بِنَاتِي
وَمَا ضِيقْتُ عَنْ آيِ بِهِ وَعِظَاتِ
وَتَنَسَّقُ أَسْمَاءَ لِمُخْتَرَعَاتِ
فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَّ عَنْ صَدَفَاتِي

زهران محمد جبر